الروافد الفكرية وإسهامات التنظير السوسيولوجي لرواد علم الاجتماع في العراق

د . نبيل عمران موسى الخالدي

جامعـة القـادسية - العراق-

الملخص :

الفكرة الرئيسية لهذه الدراسة هي الوقوف على بعض إسهامات التنظير السوسيولوجى لرواد علم الاجتماع في العراق ، وفيما إذا كان جهدهُم يشكل إضافة إلى مسيرة العلم في العراق والوطن العربي ، وتتمثل أهمية الدراسة في استقراء الفكر الاجتماعى، والتنقيب عن روافده الأساسية، وتتحقق تلك الأهمية من خلال الإلمام بالروافد الفكرية لهؤلاء رواد العلم من خلال ما تركوه من أعمال ومن سير ذاتية وعلمية، لأنها تساعد فى الكشف عن أهم ما طرحوه من أفكار، وتعد بمثابة المدخل لرصد رؤية سوسيولوجية.

Résumé :

L'idée principale de cette étude est d'identifier les contributions de la théorisation sociologique des précurseurs de sociologie en Iraq, et si leur effort est un ajout au processus scientifique en Iraq et le monde arabe. L'intérêt de cette étude réside dans l'induction de la pensée sociologique, et la recherche de ses tributaires principaux. Cet intérêt se réalise à partir de la connaissance des tributaires de la pensée de ces précurseurs de la science à travers ce qu'ils ont laissés de travaux et de biographies parce qu'ils aident à dévoiler les plus importantes idées soulevées; et ils sont considérée comme l'initiation à suivre une vision sociologique.

مجلة التغير الاجتـــماعي ـــــــــــ العــــدد الأول

مقدمة

إن الظروف الفكرية تعد من الظروف المباشرة فى إفراز علم الاجتماع وذلك لكون ظهوره يعد استجابة مباشرة لمجموع التحولات الفكرية التى أفرزتها أزمة الفكر السوسيولوجى فى فهم الواقع وتفسيره. والتي أدت إلى خلق تطورات فكرية غير مسبوقة داخل العلم تولد على أثرها اتجاه عام واقتناع نسبى لدى الأسرة السوسيولوجية بأن التيارات الفكرية بداخل العلم بكل مضامينها الفكرية وخلفياتها الأيديولوجية تحتاج إلى مراجعة نقدية تسهم فى ايجاد نوع من التجديد الفكري بداخل هذه التيارات وتمكنها فى ذات الوقت من متابعة تفاعلات الواقع وتفسيرها.

لقد تطور علم الاجتماع في وقتنا الحاضر على نحو جعل المتخصصين فيه رجال ثقافة وفكر أكثر من كونهم اجتماعيين محترفين، واقتضت متطلبات التخصص في علم الاجتماع ان يزود الدارس بتشكيلة من الدراسات تنمي لديه القدرة على التحليل والمقارنة والنقد، ولنا أن نتوقع على اساس هذا الاتجاه الجديد ان يكون البحث التاريخي بحثاً ينقب في الماضي من أجل الانطلاق منه إلى آفاق جديدة. فأن ذلك لا يعني أن هذه الاسهامات متفرقة بعضها عن بعض، بل على العكس من ذلك سنرى كيف أن هذه الأعمال يربط بينها سياق مشترك فهي تكمل بعضها بعضاً، وتعمق دراسات علم الاجتماع أكثر فأكثر.وتتجسد فكرة الدراسة الرئيسيةفي الوقوف على بعض إسهامات التنظير السوسيولوجي لهولاء الرواد، وفيما اذا كان جهدهُم يشكل اضافة إلى مسيرة العلم في العراق والوطن العربي.تتمثل أهمية الدراسة في استقراء الفكر الاجتماعي، والتنقيب عن روافده الاساسية، وتتحقق تلك الاهمية من خلال الإلمام بالروافد الفكرية لهؤلاء رواد العلم من خلال ما تركوه من اعمال ومن سير ذاتية وعلمية، لأنها تساعد فى الكشف عن أهم ما طرحوه من أفكار، وتعد بمثابة المدخل لرصد رؤية سوسيولوجية،

فقد حاولت في هذا الدراسة عرض لوضع علم الاجتماع؛ من حيث نشأته وتطوره ورواده المؤسسين وموضعه الراهن.بالاضافة الى الصعوبة التي لاقيتها في جمع اعمالهم والاعمال المقارنة لها.

المبحث الأول : مدخل إلى الدراسة

أولاً: فكرة الدراسة

هناك ثلاث علماء ربما لا يختلف أي من المشتغلين بعلم الاجتماع-مهما كانت ميوله الخاصة أو نزعاته أو تعصبه- على اعتبارهم الشخصيات البارزة في تاريخ علم الاجتماع الحديث في العراق. هؤلاء العلماء هم: علي الوردي، عبد الجليل الطاهر، حاتم الكعبي، وهم يغطون معاً أوائل القرن العشرين، وفي الحقبة التي تشكل فيها علم الاجتماع الحديث وتحددت معالمه. كما انهم القوميات الرئيسة التي ازدهر فيها علم الاجتماع في بداية عهده، والتي بدأ يتكون فيها تراثه الحديث. كما مارس كل مهم تأثيراً شخصياً عميقاً على تصور علم الاجتماع كميدان من ميادين المعرفة. لذلك يبدو من المفيد بوجه خاص أن نعرض لآرائهم حول الموضوع الحقيقي لعلم الاجتماع في العراق. وقد ساهم مع الدكتور علي الوردي والدكتور عبد الجليل الطاهر والدكتور حاتم الكعبي في نشر بذور علم الاجتماع الحديث في العراق ووضعوا اللبنات الأولى لدراسة الظواهر الاجتماعية في الريف والصحراء والمجتمع الحضري.

وتحاول الدراسة إضافة إلى ما سبق الكشف عن تأثير العلاقة بين الروافد الفكرية وما افرزتة من قضايا والأصول الفلسفية وما افرزتة من أفكار فى بناء وصياغة المقولات الأساسية التى يرتكز عليها علم الاجتماع، كذلك التلاقى بينهم فى التأكيد على إلغاء الذات والنظرة التعددية للواقع والاهتمام بدراسة الحياة اليومية، أما الروافد الفكرية فهى تغطى الجزء الأكبر من المقولات النظرية, كل ذلك ساهم فى خلق نوع من الامتزاج والتأليف بين القضايا التى افرزها كلا منهم مما أدى إلى خلق منهجية واحدة ورؤى مختلفة ساعدت على صياغة مقولات نظرية ومنهجية تتسق مع المنطق الداخلى لعلم الاجتماع ومع المقدمات الفكرية له. ولايعني عرض سير أو بعض هؤلاء العلماء وايديولوجياتهم قناعة الباحث بأن تلك هي الرؤية الصحيحة؛ بل انه عرض لجزء من تاريخ العلم بسلبياته وايجابياته. وللوقوف على الروافد الفكرية لرواد علم الاجتماع في العراق ويفرض ذلك اعتبارين هامين هما، الأول: إن معرفة هذه الروافد يشكل جوهر العلاقة بين نسق التفكير العلمى من ناحية وبين النظرية موضوع التحليل من ناحية أخرى. الثانى: إن الاقتراب من الجذور الفكرية لرواد علم الاجتماع يعد محاولة للتنقيب في الماضي من أجل الانطلاق منه إلى آفاق جديدة. فدراسة المجتمع مثلها مثل

أي دراسة أخرى لا تبدأ من فراغ، ولا يمكن التحرك بثبات حول فحص المشكلات المعاصرة دون معرفة وجهات النظر المختلفة حولها، ونقد الافكار التي تناولتها. وتخرجها كذلك من دائرة الزخم الفكرى الناتج عن التجاذب العلمى البحثى لهؤلاء الرواد إلى مستوى الرصد والتحليل السوسيولوجى للواقع. ولذا فان فكرة الدراسة تثير التساؤل الرئيسي وهو الكشف عن بعض إسهامات التنظير السوسيولوجي لهؤلاء الرواد موضوع الدراسة، وفيما اذا كان جهدهُم يشكل اضافة إلى مسيرة العلم في العراق والوطن العربي.

ثانياً: أهداف الدراسة

1- التعرف على العوامل الثقافية والمجتمعية العلمية والاجتماعية لرواد لعلم الاجتماع في العراق موضوع الدراسة.

2- الكشف عن الجذور التاريخية والاجتماعية التي أسهمت في تشكيل علم الاجتماع الحديث ودور الرواد في ذلك.

3- التعرف على الكتابات والانجازات العلمية والدراسات النظرية والميدانية التي تمخضت عن عطاء هؤلاء الرواد.

4- التعرف على الاصول الفكرية النظرية التي شكلت جوهر المرجعيه السوسيولوجية لهؤلاء الرواد.

5- التعرف على بعض إسهامات التنظير السوسيولوجي لهؤلاء الرواد، وفيما اذا كان جهدهُم يشكل اضافة إلى مسيرة العلم في العراق والوطن العربي.

ثالثاً: أهمية الدراسة

تتمثل أهمية الدراسة في استقراء الفكر الاجتماعي، والتنقيب عن روافده الاساسية، وتتحقق تلك الاهمية من خلال الإلمام بالروافد الفكرية لهؤلاء رواد العلم من خلال ما تركوه من اعمال ومن سير ذاتية وعلمية، لأنها تساعد فى الكشف عن أهم ما طرحوه من أفكار، وتعد بمثابة المدخل لرصد رؤية سوسيولوجية، وكون الدراسة تتناول أفكار ثلاثة من رواد علم الاجتماع في العراق هم علي الوردي، وعبد الجليل الطاهر، وحاتم عبد الصاحب الكعبي تناولاً يكشف موقفهم من العلم: موضوعه، ومشكلاته، ومناهجه، ويوضح

استجابتهم للاحداث السياسية والاجتماعية والفكرية التي مهدت لهم أو عاصروها، وتبين أوجه الالتقاء والافتراق بينهم، وتظهر أثرهم في تكوين البناء النظري لعلم الاجتماع المعاصر. وأود أن أشير إلى أن هذه الدراسة تهدف إلى اعادة تقويم الشخصيات التاريخية في علم الاجتماع في ضوء التيارات الفكرية والسياسية التي أسهمت في بلورة افكارهم.

رابعاً: مفاهيم الدراسة

يتضمن هذاالجزء من الدراسة تحديداً للمفاهيم التي تبنتها الدراسة الحالية، والتى تتماشى مع طبيعتها وهي ما يلي:

النظرية الاجتماعية: يعرف نيكولاس مولنر النظرية Theory على أنها شكل من الإبداع، يهدف لتحليل وتعميم العلاقات التبادلية بين الناس من خلال تطبيق عدد معين من الرؤى العامة أو المتغيرات، والتي تتحدد علاقاتها المتداخلة من قبل قوانين نظرية محددة. ويشير هذا التعريف إلى الحاجة لإدراك العناصر البنيوية الاساسية للنظرية الاجتماعية. فضلا عن ذلك، فإن النظرية الاجتماعية تستلزم ملاحظة المبادئ والقوانين الكامنة في الشكل المعياري للعلم الاجتماعي وللعلم بصفة عامة، واستخدام معرفة علمية محددة عن الظاهرة المرتبطة بالنظرية ذاتها[(1*)](1، ص455).

أما بينولدز فيرى ان استخدام مصطلح النظرية سوف يشير إلى احكام مجردة تعتبر جزءا من المعرفة العلمية سواء كانت مجموعة من القوانين أو البديهيات أو صيغ عملية عليا[2](2، ص21). ان النظرية رؤية تجريدية تهدف إلى تقديم تفسيرات وتصورات هامة للحياة الاجتماعية من حيث نشأتها وتطورها وتغيرها أو من حيث علاقة كل جانب من هذه الحياة بغيره من الجوانب.

وتعد النظرية Theory عنصرًا هامًا في البحث العلمي، فهي نشاط ذهني وعملية فكرية تفيد الباحث في تفسير الظواهر المختلفة، ومن ثم فهي تقدم فهمًا علميًا لها. وتحاول النظرية السوسيولوجية كشف المبادئ العامة التي تمكن الباحثين من فهم الواقع الاجتماعي فهمًا متناميًا ومتطورًا. وهي نسق متسق من المفاهيم المستمدة من الدراسة الموضوعية لمعطيات الواقع الطبيعي أو المجتمعي أو الإنساني عامة.

أما مصطلح التنظير فهو رؤية تفسيرية للواقع الموضوعي. وحتى لا يبقى هذا التنظير قابعا ڤي التجريد الخالص،لابد له من إطلالات على الواقع، يستبصر من خلالها الكلي في الجزئي، والمجرد في الواقعي.

كما يعرف التنظير بأنه نتاج حاول المتخصص من خلاله أن يطرح مجموعة من التفسيرات أو المقترحات عم موضوع ما، على أن تقترب (أي التفسيرات والمقترحات) من صورة هيكل أو بناء النظرية الاجتماعية[3](3، ص6).

وتعني كلمة (رواد) أولئك المفكرين والباحثين الذين كان لهم تأثير واضح في نشأة العلم وتطوره، وبلورته موضوعا ومنهجا ووظائف، وتوجيه كل هذه العناصر والعمليات وجهة أو أخرى مازالت مصاحباتها بادية على التنظير السوسيولوجي المعاصر وما يحويه من اتجاهات. وبالتالي يعد التوقف عندهم ونسج خيوط الحوار العلمي مع فكرهم مقدمة ضرورية لفهم الإتجاهات المعاصرة المحافظة والنقدية على السواء.

خامساً: منهج الدراسة

1- المنهج التاريخي: وهو مالا يمكن لباحث يغوص في دراسة حيثيات الماضي من ان يستغني عنه .

2- منهج تحليل المضمون: من اجل محاورة ومناقشة وتحليل ونقد الكتب والدراسات التي تركها رواد علم الاجتماع في العراق (موضوع الدراسة) ورائهم.

المبحث الثاني: تأسيس علم الاجتماع والعوامل التي ادت إلى تطوره في العراق

لقد كان علم الاجتماع يدرس بشكل غير نظامي في عدد من الكليات في العراق اثناء العشرينات والثلاثينات والاربعينات من القرن العشرين، ولم يكن مدرسوا هذا الموضوع من ذوي التخصص او ممن تلقوا أي تدريبٍ في علم الاجتماع بل كانوا ممن تخصصوا في دراسة المحاماة والقانون وعلم النفس والاقتصاد والعلوم الاخرى.وكان تدريس هذا الموضوع ذا طبيعة عامة وعريضة وكانت المحاضرات على العموم بمثابة محاولات اقتصرت على اعطاء صورة شاملة عن هذا الحقل الدراسي وفروعه وصلته بالمجالات الاكاديمية الاخرى.وقد

شهدت الخمسينات تطوراً تاريخياً لعلم الاجتماع في العراق اذ تم في هذا العقد الاعتراف به كعلم مستقل له تخصصه في نطاق العلوم الانسانية وهكذا فقد انشأ قسم الاجتماع في كلية الآداب[4](4، ص43). وبعد فترة وجيزة اسس قسماً مستقلاً للخدمة الاجتماعية في كلية البنات جامعة بغداد. وقد ظل القسمان يعملان بصورة مستقلة احدهما عن الآخر الى ان تم دمجهما في قسم واحد اطلق عليه قسم علم الاجتماع والعمل الاجتماعي وكان ذلك في عام 1969،وهناك جملة من الاسباب التي كانت وراء هذا التطور منها[5](4، ص44):

1- عودة عدد من الطلبة العراقيين الحاملين لشهادة الدكتوراه في علم الاجتماع بعد انهاء دراستهم في الولايات المتحدة .

2- الاعتراف الذي تم في مصر ولبنان بعلم الاجتماع كمذهب مستقل .

3- ادراك وزارة التربية والتعليم في العراق في عقد الخمسينات باهمية علم الاجتماع كأداة لتحسين الظروف الاجتماعية في المجتمع العراقي وكوسيلة للتغلب والتخلص من المشكلات المختلفة التي كانت تواجهه .

4- كان عميد كلية الآداب حينذاك متأثراً بعلم الاجتماع تأثراً عميقاً حتى انه قام بكتابة مقدمة كتاب عبد الجليل الطاهر الموسوم((المشكلات الاجتماعية في حضارة متبدلة)) وقد كان لهذا العميد جهوداً ضمها الى جهود اساتذة علم الاجتماع العائدين للتو الى الوطن في انشاء قسم مستقل لعلم الاجتماع .

وبانتهاء عقد الخمسينات وبداية الستينات تطور قسما علم الاجتماع والخدمة الاجتماعية تطوراً كبيراً، فقد تنوعت المقررات وازدادت اعداد الاساتذة والطلبة على حدٍ سواءفقد وصل عدد الاساتذة الى عشريناستاذاً بينما قارب عدد الطلبة الخمسمائة طالباً ، بعد ان بدأ هذا القسم باستاذين حاملين لشهادة الدكتوراه في علم الاجتماع فقط هما (الوردي تكساس 1950) و(الطاهر شيكاغو 1952) ثم لحق بهما (الكعبي شيكاغو 1954).

ولقد شهد علم الاجتماع في العراق تطوراً كبيراً في النصف الثاني من عقد الستينات اذا اصبح هذا العلم حقل دراسة شديدة الرواج حتى انه وفي عام 1967 ادخل كجزء من برنامج التعليم في المرحلة الثانوية علاوة على انه اصبح جزء من مقررات الاقسام الاخرى

كالفلسفة وعلم النفس والتربية والتاريخ والجغرافية ومنذ ذلك الحين اصبح هذا الموضوع يدخل الى كليات كثيرة كالطب والهندسة والتربية البدنية والعلوم السياسية والحقوق والاقتصاد والتجارة . ويعبر هذا الرواج عن الاهمية التي كان يعلقها المسؤولون العراقيون على علم الاجتماع كأداة مهمة لتقيم السلوك الانساني وتطور المجتمع العراقي . وقد كان لثلاثة احداث هامة وقعت في الستينات الاثر البارز في نمو وتطور علم الاجتماع في العراق الا وهي :

أ - تاسيس جمعية الاجتماعيين العراقيين .

ب - ادخال برنامج الماجستير في قسم الاجتماع .

ج - انشاء المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية .

ان تطور علم الاجتماع في العراق لم يختلف كثيراً عن الدول النامية فموضوعه حديث بالنسبة لجميع هذه الدول وليس له جذور قومية عميقة ويجدر الذكر هنا بان هذا العلم في كثير من الدول النامية ومن بينها العراق كان قد تأثر بعلم الاجتماع الامريكي في النظرية والمنهج ويبدو هذا واضحاً من خلال عناوين المقررات في قسم الاجتماع ونشرات هيئة التدريس التي تشير في اغلب الاحيان الى مراجع امريكية . وكما اشرنا فان اربعة اشخاص حاملين لشهادة الدكتوراه قد ساهموا في وضع الاسس الاولى لدراسة علم الاجتماع في العراق اذ انهم قاموا بدورين الأول أكاديمي تعليمي والثاني بحثي. وقد تحمل هؤلاء وزملاء لهم القسط الاكبر من الصعوبات التي كانت تقف في وجه هذا العلم الناشئ في بلد نامٍ كالعراق له خصوصيته المحلية ،اذ بالإضافة الى كونه يشكل جزءاً مهماً من الفكر والثقافة العربية فانه يضم عدداً كبيراً من الحضارات الفرعية التي خلقت منه بلد ذا طابع خاص[6](4، ص45).

لقد كان للمجموعة العراقي الاولى من أساتذة علم الاجتماع طابعها المميز واسلوبها الخاص ويتوضح لنا ذلك عند مقارنة اعمالهم مع اعمال زملائهم في مصر و الشام والمغرب العربي ،ففي الوقت الذي كانت فيه اعمال العراقيين قد اتصفت بالمزاوجة بين الاعمال الاكاديمية والاعمال البحثية ذات الرغبة الفردية في اختيار نوع البحث او الترجمة او التأليف الذي

يرغب الباحث بالقيام به دون العودة الى الجامعة واخذ موافقتها ، اذ كان تمويل البحوث والتاليف الاكاديمي وغير الاكاديمي يتم من اجل حث وتشجيع الباحث العراقي دون التحكم في اختيار موضوعات البحث والتأليف فلم تخرج اعمالهم من مراكز بحوث كما هو الحال في مصر حيث كانت اعمال العراقيين محفزة بحوافز ذاتية وتنجز بمجهودٍ فردي من د ون اية مساعدة وذلك لعدم وجود العدد الكبير من الاجتماعيين اولاً و لعدم وجود مراكز للبحوث ثانياً. ولقد كانت الهوية المهنية للباحثين الرواد في العراق تساعدهم على ان يتخذوا مواقفاً متقاطعةً مع قرارات السلطة الحاكمة ابان العقدين السادس والسابع من القرن العشرين بينما لم يكن لزملائهم في مصر مثل هذه المواقف فقد كانت اعمالهم اكاديمية مطلقة وتتفق دائماً مع قرارات السلطة[7](5، ص195).

لقد درس الباحثون العراقيون الرواد مجتمعهم بتجرد وبمنهج واسلوب علمي ومن خلال فكرهم الخاص دون أي ضغط من احد . وهذا لا يعني تمتعهم بالحرية المطلقة ولكن مقارنة مع الباحثين في الاقطار العربية فان فرصهم كانت انسب وحضوضهم كانت أو فر ،وعليه فقد تميز الجهد السوسيولوجي في العراق عنه في مصر كما اشرنا او عما كان عليه في اقطار المغرب العربي والتي دخلت اليها السوسيولوجيا كمؤسسة ادارية وسياسية في خدمة الحماية الفرنسية ولذا فان العلاقة التي كانت تربط السياسة الاستعمارية الفرنسية بعلم الاجتماع حين دخوله الى هذه الاقطار ((المغرب ، الجزائر ، تونس)) كانت علاقة جدلية.ان انطلاقة علم الاجتماع في العراق كانت حره وغير مقيدة، على العكس مما كانت عليه في مصر اوفي اقطار المغرب العربي. إذ ان مجموعة صغيرة من الاكاديمين المتخصصين في علم الاجتماع لا يتجاوزن اصابع اليد قد شكلوا نواة علم الاجتماع في العراق رغم الصعوبات الجمه التي واجهتهم ، جمعتهم عراقيتهم واخلاصهم لوطنهم وتفانيهم في عملهم فآلوا على انفسهم الاّ ان يدرسوا مجتمعهم قبل كل شيء . وقد كان لهؤلاء ريادة علم الاجتماع في العراق وقد كانت لكتاباتهم الاثر الكبير في نشر بذور علم الاجتماع الحديث،

المبحث الثالث: التحولات الفكرية المباشرة في إفراز علم الاجتماع (الرواد المؤسسين لعلم الاجتماع)

وبناء على ما سبق تحاول الدارسة الاقتراب من الروافد الفكرية لرواد علم الاجتماع وذلك من خلال عرضها لأفكار وآراء هؤلاء الرواد داخل علم الاجتماع وذلك على النحو التالى:

أولاً: علي الوردي (1913-1995)(●)

هو علي حسين محسن الوردي (1913- 12 تموز 1995 م)، وهو عالم اجتماع عراقي، أستاذ ومؤرخ وعرف باعتداله وموضوعيته وهو من رواد العلمانية في العراق. وبعد اتمامه الدراسة الثانوية حصل على المرتبة الثالثة على العراق فأرسل لبعثة دراسية إلى الجامعة الأمريكية في بيروت وحصل على البكلوريوس وارسل في بعثة أخرى إلى جامعة تكساس حيث نال الماجستير عام 1948 ونال الدكتوراه عام 1950. قال له رئيس جامعة تكساس عند تقديم الشهادة له: أيها الدكتور الوردي ستكون الأول في مستقبل علم الاجتماع . ويزداد في وقتنا الحاضر الاهتمام بأفكار الوردي وبنقد وتحليل كتاباته بإعتبار أنها تطرح علم اجتماع له طابع متميز،وله مضمونه ومنهجه الخاص الذي يتعين دراسته والإفادة منه وجدير بالذكر أن هذا الاهتمام حديث العهد جداً؛

خلفيةتاريخية:

تعتبر دراسة علي الوردي للشخصية العراقية هي الأهم من نوعها ومن الممكن أن نستفيد منها كنهج للبحث لباقي بلدان الشرق الأوسط، فقد حلل علي الوردي الشخصية العراقية على اعتبارها شخصية ازدواجية تحمل قيم متناقضة هي قيم البداوة وقيم الحضارة ولجغرافيا العراق أثر في تكوين الشخصية العراقية فهو بلد يسمح ببناء حضارة بسبب النهرين ولكن قربه من الصحراء العربية جعل منه عرضة لهجرات كبيرة وكثيرة عبر التاريخ آخرها قبل 250 سنة تقريبا، ووصف علي الوردي العراق بالبوتقة لصهر البدو المهاجرين ودمجهم بالسكان الذين سبقوهم بالأستقرار والتحضر. فتنشئ لديهم قيمتان: قيمة حضرية وقيمة بدوية. فالعراقي ينادي بقيم الكرامة والغلبة. ولكن حياته تجبره على الانصياع لقيم التحضر،

حلل أغلب مناطق العراق ما عدا المناطق الكردية في العراق بسبب عدم إلمامه باللغة الكردية حسب قوله في كتاب "دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ". بالإضافة إلى تأثر الدكتور الوردي بابن خلدون فلا ننسى تأثره أيضا بالجاحظ في نظرته الموضوعية ومنهجه العقلاني وتحليلاته الاجتماعية والنفسية للسلوك البشري.

يعتبر على الوردي رائد علم الاجتماع في العراق وهو من القلائل الذين كتبوا عن هذا المجتمع وندروا له حياتهم, ولحد الآن لم يخلفه أحد.كما حلل أصول المهاجرين وتميزت مؤلفات وأبحاث الوردي بالصبغة الانثرولوجية حيث ما أنفك يبحث عن الكثير في واقع مجتمع العراق والمجتمع البغدادي وعاداته وتقاليده المتحدرة من عهود الخلافة العباسية.وعن المناسبات الدينية وأهميتها في حياة الفرد البغدادي كالمولد النبوي الشريف وذكرى عاشوراء، وشن حملة شعواء ضد بعض رجال الدين خصوصا في كتابه وعاظ السلاطين ومهزلة العقل البشري وأتهمهم بالوقوف إلى جانب الحكام وتجاهل مصالح الأمة على حساب مصالحهم الضيقة متخاذلين عن واجبهم الدينيودعا إلى نبذ الخلاف الطائفي بين الشيعة والسنة وطالب بالنظر إلى موضوع الخلاف بين الإمام علي ومعاوية على إنه خلاف تاريخي تجاوزه الزمن ويجب على المسلمين عوضا عن ذلك استلهام المواقف والآراء من هؤلاء القادة التاريخيين.

لقد تنبأ الوردي بانفجار الوضع مثلما تنبه إلى جذور العصبيات التي تتحكم بشخصية الفرد العراقي التي هي واقع مجتمعي تمتد جذوره إلى القيم والاعراف الاجتماعية والعصبيات الطائفية والعشائرية والحزبية التي ما زالت بقاياها كامنة في نفوسنا. وكذلك إلى الاستبداد السلطوي، الزمني والتزامني، الذي شجع وما يزال يشجع على اعادة إنتاج الرواسب الاجتماعية والثقافية التقليدية القديمة وترسيخها من جديد، كما يحدث اليوم

والحقيقة كان على الوردي أول عالم اجتماع عراقي درس شخصية الفرد العراقي وطبيعة المجتمع العراقي بجرأة وصراحة وحلل الظواهر الاجتماعية الخفية والسلوكات الفردية والجمعية ووجه الاهتمام إلى دراستها وتحليلها ونقدها. وهو بهذا دفعنا إلى اعادة النظر في خطابنا الفكري والاجتماعي والسياسي والى ضرورة ان ننزل من ابراجنا العاجية وان نعي واقعنا بكل ايجابياته وسلبياته، فقبل أكثر من نصف قرن قال على الوردي بان على العراقيين ان

يغيروا انفسهم ويصلحوا عقولهم قبل البدء بإصلاح المجتمع، لان التجارب القاسية التي مر بها الشعب العراقي علمته دروسا بليغة, فاذا لم يتعض بها فسوف يصاب بتجارب اقسى منها.! وعلى العراقيين ان يتعودوا على ممارسة الديمقراطية حتى تتيح لهم حرية الرأي والتفاهم والحوار دون أن تفرض فئة أو قبيلة أو طائفة رأيها بالقوة على الاخرين. كما قال: "بان الشعب العراقي منقسم على نفسه وفيه من الصراع القبلي والقومي والطائفي أكثر من اي بلد آخر. وليس هناك من طريق سوى تطبيق الديمقراطية, وعلى العراقيين ان يعتبروا من تجاربهم الماضية, ولو فلتت هذه الفرصة من ايدينا لضاعت منا امدا طويلا." لقد صدق علي الوردي, فالعراق اليوم يقف في مفترق طرق, وليس امامه سوى ممارسة الديمقراطية(الحقيقية) حتى في ابسط اشكالها وآلياتها، فهي الطريق الوحيد للخروج من هذه الأزمة العصيبة.

مؤلفاته

كتب الوردي ثمانية عشر كتابا ومئات البحوث والمقالات خمس كتب منها قبل ثورة 14 تموز 1958 وكانت ذات أسلوب ادبي -نقدي ومضامين تنويرية جديدة وساخرة لم يألفها القاريء العراقي ولذلك واجهت افكاره واراءه الاجتماعية الجريئة انتقادات لاذعة وبخاصة كتابه " وعاظ السلاطين" الذين يعتمدون على منطق الوعظ والإرشاد الافلاطوني منطلقا من أن الطبيعة البشرية لا يمكن إصلاحها بالوعظ وحده، وان الوعاظ انفسهم لا يتبعون النصائح التي ينادون بها وهم يعيشون على موائد المترفين، كما اكد بانه ينتقد وعاظ الدين وليس الدين نفسه. اما الكتب التي صدرت بعد ثورة 14 تموز فقد اتسمت بطابع علمي ومثلت مشروع الوردي لوضع نظرية اجتماعية حول طبيعة المجتمع العراقي وفي مقدمتها كتابه دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ومنطق ابن خلدون ولمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث الذي صدر في ثمانية اجزاء

أ- تأثره بمنهج ابن خلدون في علم الاجتماع:

كان الوردي متأثرا بمنهج ابن خلدون في علم الأجتماع. فقد تسببت موضوعيته في البحث بمشاكل كبيرة له، لأنه لم يتخذ المنهج الماركسي ولم يتبع الأيدلوجيات (الأفكار) القومية فقد أثار هذا حنق متبعي الايدلوجيات فقد اتهمه القوميون العرب بالقطرية لأنه عنوان كتابه"

شخصية الفرد العراقي" وهذا حسب منطلقاتهم العقائدية إن الشخصية العربية متشابهة في كل البلدان العربية. وكذلك إنتقده الشيوعيون لعدم اعتماده المنهج المادي التاريخي في دراسته[8](6، ص128). فقد أكد في بحثه (ابن خلدون والمجتمع العربي) اسبقية ابن خلدون في تأسيس علم الاجتماع من غيره من العلماء لما اعتمده من منهجية علمية قائمة على الملاحظة بالمعايشة والمقارنة والتحقيق من الاخبار المنقولة. كما اكد الدكتور الوردي في هذا البحث (اننا في حاجة إلى علم اجتماع عربي خاص بنا، ولي أن أقول أن علم الاجتماع الحديث لم يتطور بعد إلى علم الدرجة التي يصبح فيها عالميا يصدق في كل المجتمعات، إنه لا يزال متأثراً بطابع المجتمع الذي ينشأ فيه وهو مجتمع يختلف عن مجتمعنا اختلافا كبيراً، إن علم الاجتماع الحديث علم عظيم لامراء في ذلك، وهو كغيره من العلوم الحديثة ضروري لبناء نهضتنا العتيدة، ولكننا لا يجوز أن نكون فيه مقلدين بحيث نهمل ما في مجتمعنا من خصلئص وظروف متميزة عن غيره. في رأيي أن مجتمعنا العربي الحاضر لا يزال يحتفظ بكثير من الخصائص التي كانت له في أيام ابن خلدون. وهذا يعني أن نظرية ابن خلدون لا تزال تحتفظ بجديتها وهي اذن ذات فائدة كبيرة لنا حيث نريد دراسة مجتمعنا في واقعه الراهن)[9].

ومن الغريب ان ينتقد الوردي ابن خلدون نقدا عنيفا، حينما اكد ان تلك النظرية رغم ما فيها من عظمة الا انها اعتبرت الواقع الاجتماعي شيئا يصعب تغييره، فالواقع الاجتماعي سائر على قوانين تشبه قوانين الطبيعة، كما انتقد ابن خلدون معتبرا اياه انتهازيا في طروحاته وسلوكه يجاري الواقع القائم آنذاك، و لايفكر في تغييره، ونحن نعتقد أن ذلك من سمات الانتهازي، أما نظريته فهي اجتهاد عالم عاش في ظل ظروف سياسية واقتصادية غير مستقرة، وعليه فأن تقييمها له بمنظار العصر والتأكيد أنه لم يكن ثوريا، بعد حوالي خمسة قرون من تلك المقدمة يوقعنا في مطبة النقد غير الدقيق لذلك العالم وطروحاته. اما كتابه (منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته)وهو من الكتب القيمة التي عرفت بابن خلدون والفلاسفة والفقهاء الذين تأثر بهم وأسباب عبقريته ومنهجه العلمي الذي جسد بنظرية الصراع ما بين البداوة والحضارة. وفي كتابه (الاحلام بين العلم والعقيدة)، وهو كتاب عرف فيه بالأحلام وآراء الفقهاء والنظريات المفسرة لها، ومتناولا فيه كذلك الباراسيكولوجي أو علم خوارق اللاشعور، وفي عرضه لكتابه (خوارق اللاشعور أو أسرار الشخصية الناجحة) .

ب- تحليلاته في بنية المجتمع العراقي الحديث

ومن الاتجاهات الأخرى التي يمكن أن نصنف ضمنها أغلب ما كتبه الوردي من مؤلفات هو الاتجاه التنظيري حيث حاول هنا تطبيق نظرية ابن خلدون في الصراع ما بين البادوة والحضارة على دراسة المجتمع العراقي متوصلا إلى ما أسماه (بازدواجية الشخصية) عند الفرد العراقي، وقد حاول في أغلب مؤلفاته إثبات وجود تلك الازدواجية مع الاختلاف في درجة التطرق اليها من مؤلف الى آخر، ونبدأ هذا الاتجاه بكتابه (شخصية الفرد العراقي) إذ قال الوردي عن الازدواجية (لقد لاحظت بعد دراسة طويلة بأن شخصية الفرد العراقي فيها شئ من الازدواج، وقد يندهش بعضكم من هذا القول حيث أنه لا يحس عياناً بهذا الازدواج الذي اعزو اليه، والواقع ان كثيرا منا فيه هذا الازدواج الشخصي قليلا او كثيرا ولكننا نشأنا فيه)[10] وتعتبر دراسة علي الوردي للشخصية العراقية هي الأهم من نوعها ومن الممكن أن نستفيد منها كمنهج للبحث لباقي بلدان الشرق الأوسط، حلل علي الوردي الشخصية العراقية على اعتبارها شخصية ازدواجية تحمل قيم متناقضة هي قيم البداوة وقيم الحضارة ولجغرافيا العراق أثر في تكوين الشخصية العراقية فهو بلد يسمح ببناء حضارة بسبب النهرين ولكن قربه من الصحراء العربية جعل منه عرضة لهجرات كبيرة وكثيرة عبر التاريخ آخرها قبل 250 سنة تقريبا.وصف علي الوردي العراق بالبوتقة لصهر البدو المهاجرين ودمجهم بالسكان الذين سبقوهم بالأستقرار والتحضر. فتنشئ لديهم قيمتان: قيمة حضرية وقيمة بدوية. فالعراقي ينادي بقيم الكرامة والغلبة. ولكن حياته تجبره على الانصياع لقيم التحضر، حلل أغلب مناطق العراق ما عدا المناطق الكردية في العراق بسبب عدم إلمامه باللغة الكردية حسب قوله في كتاب "دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ". بالإضافة إلى تأثر الدكتور الوردي بابن خلدون فلا ننسى تأثره أيضا بالجاحظ في نظرته الموضوعية ومنهجه العقلاني وتحليلاته الاجتماعية والنفسية للسلوك البشري[11].

مناقشة وتقويم

يعتبر "علي الوردي" الأب المؤسس لعلم الاجتماع في العراق، فقبل أكثر من نصف قرن قال على الوردي بان على العراقيين ان يغيروا انفسهم ويصلحوا عقولهم قبل البدء بإصلاح المجتمع، لان التجارب القاسية التي مر بها الشعب العراقي علمته دروسا بليغة, فاذا لم يتعض

بها فسوف يصاب بتجارب اقسى منها.! وعلى العراقيين ان يتعودوا على ممارسة الديمقراطية حتى تتيح لهم حرية الرأي والتفاهم والحوار دون أن تفرض فئة أو قبيلة أو طائفة رأيها بالقوة على الاخرين. كما قال: "بان الشعب العراقي منقسم على نفسه وفيه من الصراع القبلي والقومي والطائفي أكثر من اي بلد آخر. وليس هناك من طريق سوى تطبيق الديمقراطية, وعلى العراقيين ان يعتبروا من تجاربهم الماضية, ولو فلتت هذه الفرصة من ايدينا لضاعت منا امدا طويلا." لقد صدق علي الوردي, فالعراق اليوم يقف في مفترق طرق, وليس امامه سوى ممارسة الديمقراطية(الحقيقية) حتى في ابسط اشكالها وآلياتها، فهي الطريق الوحيد للخروج من هذه الأزمة العصيبة.

ثانياً: عبد الجليل الطاهر(1917 – 1971)(●) : ولد الطاهر عام 1917 في القرنة البصرة جنوب العراق وقد انهى مراحل دراسته الاولى في منطقة نشاته ، ثم انتقل الى بغداد حيث تخرج من دار المعلمين العالية في عام 1946 والتحق بالبعثة العراقية ودرس في جامعة السوربون على ايدي الاساتذة (لوي فاسينون) و (جورج دافي) و (جورج غرننش) ثم انتقل الى جامعة شيكاغو في الولايات المتحدة الامريكية فحصل على الماجستير و الدكتوراه عام 1949 . وعمل مدرساً في المدارس الثانوية بعد تخرجه من دار المعلمين العالية ، و بعد عودته من بعثته في باريس وامريكا اشتغل مدرساً في كلية الاداب جامعة بغداد سنة 1952 ثم استاذ مساعد فيها حتى عام 1963 ، ثم التحق بكلية الاداب بجامعة الرياض سنة 1964 ثم استاذا بالجامعة الليبية وبعدها عاد إلى كلية الاداب في جامعة بغداد.

خلفية تاريخية:

لقد درس الاستاذ الطاهر المجتمع العراقي في عدة بحوث، وان جاءت في فترات مختلفة اذ لم يدرسه جملة واحدة أو ان يخصص لهُ در اسه موحده وانما درس البيئات الثلاثة التي يتكون منها المجتمع العراقي وهي(البادية والريف والمدينة). هذه الدراسات نشرت على شكل اربعه مؤلفات مطبوعه، اولها كانت دراسته الموسومه (البدو والعشائر في البلاد العربية)، وثانيها مقدمة كتابه (التفسير الاجتماعي للجريمة) التي خصصها لدراسة المجتمع المدني في بغداد ومن خلاله دراسة المجتمع المدني في العراق.

مناقشة وتقويم

تحاول هذه الدراسة البحث في تفحص الاعمال الابداعية للدكتور الطاهر، والذي يمكن تصنيفه على اتجاهات، وكالآتي:

أولاً: المجتمع العراقي

ضمن الاتجاه التوليفي يقع كتاب (مسيرة المجتمع، بحث في نظرية التقدم الاجتماعي) وهو عرض بدأه بتساؤلات العلماء حول المخاطر التي جاءت بها المدينة الحديثة على الحضارة والانسان، منها هل المجتمعات في فجر الحضارات الاولى كانت اكثر سعادة منا؟ هل المدينة التي تتمتع بثمارها تكلفنا اثماناً باهضة ندفعها على حساب قيمنا الحضارية الروحية؟ تلك التساؤلات كانت مثار جدل في هذا الكتاب الذي وضعه د. عبد الجليل الطاهر لآراء اصحاب الحتميات المفسرة لحركة التاريخ، مثل الحتمية الاقتصادية والجغرافية ودور البطل أو الكارزما الملهم يلخص عنوانه فحواه، وقد استعرض (الطاهر) اكثر النظريات التي بحثت في التقدم الاجتماعي والمعوقات التي رافقتها، سواء اكانت هذه النظريات مثالية ام مادية- عقلية ام تجريبية، وضعية منطقية أن طبيعية.. مستعرضاً من خلالها أفكار كبار الفلاسفة وعلماء الاجتماع امثال هيكل وماركس وتوينبي وشبنجلر وروسو وسنت سيمون وهي من دون شك عصارة فكر عرف صاحبه كيف ينتقي ومن اين يبدأ والى اي شيء يهدف ليقدمه لنا على طبق من المعرفة ومن يطلع على هذا الكتاب يدرك اي جهد بذله الطاهر في هذا المضمار[12].

لقد اوضح الطاهر العلاقة بين المنهجين التأريخي والاجتماعي فتطرق إلى آراء ابن خلدون الاجتماعي في مسيرة المجتمع وهو لا يؤمن بالحتمية التي يراها بعض المنظرين كونها اساساً في تحريك التأريخ فالتاريخ فيه تقدم مثلما فيه نكوص اجتماعي، وتطرق الباحث إلى آراء الفلاسفة اليونانيين في موضوع القضاء والقدر وتأثرهم باللاهوت المسيحي وتحدث عن فلسفة سنت سيمون واوكست كونت إذ ركز سنت سيمون على اهمية الصناعة أما أوكست كونت فقد شجب الثورة ورجح النظام في التقدم وفرق بين مفهومي التطور والتقدم واعتبر الاول في المجال البيولوجي والثاني في المجال الاجتماعي- النفسي والعقلي والخلقي وعالج

الفرق بين المواطن الميكانيكي والمواطن العضوي وحلل العامل الجغرافي والرسي وظهور شخصية (هتلر) و(موسوليني) وناقش فلسفة نيتشة وبرجسون وشوبنهور التي آمنت بالارادة وفضلتها على العقل والاستاذ الطاهر لا يفسر مسيرة التقدم بعامل واحد كالعامل الاقتصادي مثلاً لانه يرى ان عملية التقدم متوازنة اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً وسياسياً وعلى الانسان ان يعرف كيف يسير مصيره.

ثانياً: كتابه البدو والعشائر في البلاد العربية

وضمن الاتجاه التوليفيدرس الاستاذ الطاهر المجتمع العراقي الذي يعيش في البادية. وتعتبر دراسته الموسومه (البدو والعشائر في البلاد العربية) من الدراسات المهمة كونها تعالج موضوعاً كان يشغل حيزاً كبيراً من حياة الافراد والجماعات في المجتمع العراقي. بالاضافة الى ان القيم البدوية قد كانت اكثر قوة واشد تأثيراً في اكثر مجالات الحياة وبالاخص الجانب السياسي الذي لعبت العشائر فيه دوراً كبيراً.ويعد ههذا الكتاب من الكتب القيمة لما تضمنه م مفردات وعمق تحليل للأسس الاجتماعية والنفسية التي يقوم عليها المجتمع البدوي مركزاً هنا على آراء ابن خلدون في العصبية القبلية، والحقوق والواجبات في كلا المجتمعين، وأثر البدو والعشائر في السياسة والصراع ما بين الولاء للقبيلة والوطن، والنظام العائلي من حيث الادوار والعلاقات الاجتماعية في الريف والحضر، وخصائص المجتمع البدوي وتوزيع البدو والقبائل والعشائر، خاصة في الاردن وسوريا والعراق ابان الخمسينات من هذا القرن[13].

الشخصية العراقية في كتابات الدكتور عبد الجليل الطاهر

دراسة الشخصية العراقية التي شكلت موضوعاً ساخناً للمناقشة والدراسة والتحليل في حينها على وجه الخصوص مع زميله الدكتور الوردي0 وقد جاءت دراسته الشخصية العراقية في عامي (1969 – 1971) عبارة عن ردود افعال لكتابات الدكتور الوردي ولم يكن من اهتماماته الفكرية او البحثية الاساسية بالرغم من انه كان عازماً على اصدار دراسة نفسية واجتماعية لظاهرة (القلق الاجتماعي في العراق) محاولاً ان يتعرف على طبيعة

شخصية الفرد العراقي وكان طموحه منصباً على وضع الخطوط العامة لهذه الشخصية التي اختلف في وصف طبيعتها وتشخيص مقوماتها عدد كبير من رجال السياسة والمؤرخين والفلاسفة وعلماء الاجتماع و الاخلاق وغيرهم.

لقد وصف الدكتور الطاهر في دراسة القوقعة و القلق في المجتمع العراقي بأن الشخصية العراقية متقوقعة و قلقة في آن واحد و حدّد فكرته في ان الرواسب القوقعية في اعماق الشخصية العراقية خلفتها مجموعة من القوانين الموضوعية التي مارستها القوى الاجتماعية بمختلف اتجاهاتها و الوانها و اشكالها و حجومها وتحالفاتها ومحاولتها فرض الضغوط على الخط العام لمسيرة المجتمع العراقي ليتفق مع التكوين القوقعي لتلك القوى فأثرت في تكوين هذه الشخصية . وقد وضع الدكتور الطاهر ثلاثة مظاهر اساسية لينظر من خلالها الى شخصية الفرد العراقي وهي:

1- ان الانتماء القوقعي المتحجر الى الاسرة او المحلة او القبيلة او الطبقة او الطائفة وغيرها من الانتماءات الجزئية المقطعية تجر وجدان العراقي جراً غير متناسق الى بؤر ولائية مليئة بالمياه الآسنة من الاحقاد وتختلف في عفونتها وعمقها و تؤدي الى تصدع البناء النفسي للشخصية والبناء الاجتماعي للمجتمع .

2- تمثل شخصية الفرد في العراق مظهراً تاريخياً وحضارياً يرمز ويعبر عن نموذج المجتمع في مرحلة تاريخية وحضارية معينة اي ان مراكز الثقل في الشخصية تختلف في اهتماماتها من مرحلة الى أخرى .

3- ان لشخصية الفرد العراقي مستويات و اطارات مختلفة من العلاقات .

4- ان هذه المظاهر الاساسية كما يتصور الدكتور الطاهر اعطت صورة مترابطة الاجزاء عن الشخصية والمجتمع وبينت ان في الشخصية العراقية مظهرين هما (1- القلق 2-القوقعية).

ويؤكد الدكتور الطاهر على ان الشخصية العراقية كانت حصيلة ذلك التفاعل التناقضي بين اعداد متنافرة من القواقع الولائية التي لم ينته تفاعلها الى تكوين نفسي متكامل ومترابط وجعل الشخصية العراقية ينبوعا لا ينضب من الحركة والقدرة على التغير والاصالة والابداع والاجتهاد وصلابة الرأي وباستطاعتها ان تطبع كل الاقوام التي وطأت ارض

الرافدين وكل التيارات الحضارية بطابعها الخاص ولها القدرة على صهر الفكرة الواحدة وتحليلها وابداء الرأي في عناصرها وتأليف مدراس فكرية حولها[14] .

مقارنة بين رأيي الطاهر والوردي في الشخصية العراقية:

1- رأي الطاهر:

يؤكد الاستاذ الطاهر على أن الشخصية العراقية كانت ومازالت حصيلة لذلك التناقض بين اعداد متنافرة من القواقع الولائية، مما جعل هذه الشخصية ينبوعاً لا ينضب من الحركة والقدرة على التعبير والاصالة والابداع والاجتهاد فلقد استطاعت هذه الشخصية ان تطبع كل الاقوام التي سكنت بلاد ما بين النهرين وكل التيارات الحضارية - الفلسفية والدينية واللغوية بطابعها الخاص، فلهذه الشخصية القدرة على صهر الفكرة الواحدة وتحليلها وابداء الرأي في عناصرها وتأليف مدارس فكرية حولها، ويمكن القول: مثلما يرى الطاهر ان الشخصية العراقية تواجه اليوم انواعاً جديدة من التناقضات الطبقية، بين الرجعية والتقدمية وبين الاستعمار والقومية المتمردة ، وبين الانظمة الاستغلالية والاشتراكية، وبين الريف والمدينة. اما اعراض هذا القلق فيحددها الطاهر بمجموعة من الظواهر والمشكلات الاجتماعية كالثورات المسلحة والانقلابات العسكرية والمنازعات بين القبائل وسقوط الوزارات بصورة متتابعة، العزل عن المناصب، واسقاط المواطنة، حل البرلمانات، وتعطيل الصحف زيادة على أعراض أخرى كانت تطفو فوق سطح الحياة الاجتماعية في العراق[15] .

الصفات والخصائص التي تميز الشخصية العراقية لدى الطاهر:

وأخيراً فأن الاستاذ الطاهر يستعرض مجموعة من الصفات والخصائص التي تميز الشخصية العراقية فلأنها حصيلة الصراع المستمر لمجموعة كبيرة من القواقع المتعارضة والمتناقضة فقد اصبحت هذه الشخصية حية تمجد ذاتها وتعظمها، تعتز بماضيها وتتألم على حاضرها، ومن صفاتها ايضاً الاندفاعات المفاجئة حتى ان الاستاذ الطاهر يشبه الشخص العراقي في سلوكياته المندفعة والمتفجرة بشكل غير متوقع بنار نبات الحلفة التي تهب مرة واحدة وتنطفئ مرة واحدة، زيادة على ذلك ان الشخصية العراقية تمتاز بالعنف في مواجهة الآخرين[16](8، ص77-78).

ب- رأي الوردي:

يرى الوردي إن الشخصية العراقية ازدواجية وتنمو ضمن جانبين هما الجانب الواقعي والجانب المثالي ، فالجانب الواقعي ينمو وينشأ في شخصية الفرد العراقي ضمن تعامله مع الواقع فالجيرة والاسرة وجماعة اللعب تربي في الطفل ان يكون غالباً وليس مغلوباً اما الجانب الثاني فيأتي من التربية الدينية عند الفرد اثناء تلقيه المواعظ الدينية والمجادلات المنطقية وايمانه بالقيم الاجتماعية كالعصبية القبلية والنخوة، ومن هنا تنشأ الأزدواجية لدى الشخصية العراقية[17] .

ومن خلال ما تقدم يتضح انه لا يختلف رأي الطاهر عن الوردي الا في التفاصيل في كون الشخصية العراقية حصيلة تناقضات كثيرة في المجتمع العراقي سوى أن الطاهر يرى ان هذه التناقضات وسيلة لأنصهار المجتمع العراقي في بودقة الابداع والاصالة والاجتهاد أما الوردي فيركز على موضوع ازدواجية المجتمع العراقي وبدويته في تعامله الحياتي- كما هو معروف عنه. إن شخصية العراقي على الرغم من انسحابها للماضي العريق وما فيه من سلبيات الا ان هذه الشخصية يجمعها حب الوطن (العراق) ويشعر اغلبية سكانه انهم ابناء وطن واحد ويذكرهم قول الرسول (اختلاف امتي رحمة).

أذن المجتمع العراقي يتكون من افراد ينتمون الى جماعات بشرية كالاسرة والمدارس والوحدات العسكرية والمصالح والمزارع والدوائر البيروقراطية والنوادي والجمعيات.. الخ وهذه الجماعات البشرية تكون في حالة اتصال وتفاعل الواحدة بالاخرى ولكل من هذه الجماعات هياكلها ووظائفها واهدافها التي غالباً ما تنسجم مع طبيعة المجتمع العراقي على أربعة عناصر أساسية هي الشعب (مجموعة الافراد) والوطن (الأرض التي يعيش عليها الشعب) والروابط الاجتماعية التي تربط ابناء الشعب وتكون أساساً في تضامن الشعب ووحدته، واخيراً عناصر المجتمع هي اللغة والتأريخ والعادات والتقاليد الاجتماعية والاهداف العليا والمصير المشترك الذي يجمع ابناء المجتمع الواحد سوية من اجل مواجهة الاخطار والتحديات وبلوغ الغايات العليا التي يصبو اليها الافراد والجماعات. وليس أدل على قوة هذه الشخصية في مقارعتها الاستعمار بكل اشكاله غوث الطريد وفك العاني، على الرغم مما يعلو على هذه الشخصية من ظروف اجتماعية آنية قد تحيدها احياناً عن هذا الواقع.

رأي عن الطاهر:

لقد اقترن اسم الطاهر بالوردي فكلاهما درسا المجتمع العراقي واعطيا رأيهما فيه زيادة على ذلك فقد اقترن اسم الطاهر بالعراقي في مصر، لقد كان الطاهر جم النشاط غزير الانتاج، اذ كان كثير العطاء العلمي من بين جيل الرواد العراقيين والعرب فقد كان هو والعراقي من مصر يعدون الاكثر عطاء بين زملائهم الذين عاصروهم في الفترة ذاتها على مستوى الوطن العربي [18] .

ثالثاً: حاتم الكعبي (1917-1979) (●)

خلفية تاريخية

ولد في مدينة الكاظمية عام 1917، حصل على الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة شيكاغو بأمريكا سنة 1954 ، عين بجامعة بغداد ومارس التدريس في كلية الآداب ، ويعد من رواد البحث الاجتماعي الأوائل في العراق، وكان يتبع في بحوثه وكتاباته المنهج السوسيولوجي الموضوعي الرصين، وطرح فيها مفاهيم تحليلية جديدة مثل التنافس الاجتماعي بين الطبقات والتسابقية في التنافس الاجتماعي وناقش ظاهرة الزهو بين الأفراد، واشتهر ببحوثه حول التحليل الاجتماعي والنفسي للحركة الوطنية في العراق، وبيان العلاقة بين الفكر الاجتماعي والواقع الاجتماعي، وحفز التفكير الاجتماعي في القراء وأثار انتباههم إلى ظاهرات اجتماعية لم تكن مدروسة من قبل، له كتب مطبوعة، منها : (في علم اجتماع الثورة 1959) و(نمو الفكر الاجتماعي 1964) و(حركات المودة 1971) و(السلوك الجمعي 1973)، وله كتب مترجمة كثيرة، منها: (المدرسة الاقتصادية في علم الاجتماع لسروكن 1948) و (المدرسة الميكانيكية في علم الاجتماع 1948)، وله بحوث اجتماعية طريفة منشورة في مجلة (الأستاذ) التي صدرت عن كلية التربية.

من دراساته المهمة، تلك الدراسة المثيرة المعنونة " الحركات الإجتماعية التي تدور حول منقذ منتظر 1966"، فكانت أولى دراساته المقارنة في تناولها للمجتمع العراقي مع غيره من المجتمعات , ثم كتب دراسة أخرى مثيرة للإهتمام و هي " نظام الطوائف الإجتماعي " ثم " حركات المودة 1971 " التي إقترب فيها كثيراً من السلوكية النفسية العراقية بشكلها المفرد

و الجمعي لكن بنفس الأسلوب الأكاديمي المغترف من أساطين التنظير الإجتماعي العالمي . درس الكعبي ظواهر لم توضع بالتفصيل على مائدة البحث العلمي مسبقاً ك مفهوم الإفتتان و التقليعة و الشيوع غير المفهوم لإستعمال بعض الكلمات أو الحركات أو الإيماءات في المجتمع العراقي كانت لغة الكعبي تحمل الكثير من التقنيات الأكاديمية مما جعل أعماله ذات أثر تحليلي و علمي منهجيين في الدراسة الميدانية أكثر من الإنتشار الشعبي لكنها ذات تأثير مباشر على التفسير الظاهراتي للنتائج الإحصائية رغم كون الكعبي من أتباع المدرسة التي تتبنى التفاعلية الرمزية في تفسير الحقائق الإحصائية المستخدمة من المسوحات الميدانية .

لا يقدم هذا الرائد الاجتماعي على التأليف أو الترجمة اعتباطاً أو بدون هدف علمي، أو من أجل إثارة الجمهور العراقي بطرح موضوع مولع به، أو يجاري ظاهرة اجتماعية مؤقتة سادت المجتمع العراقي، بل تحفزه مثيرات اجتماعية أو فكرية تمثل الزلل أو النقص أو الصراع أو التعصب الذي يسود بعض شرائح المجتمع العراقي وبخاصة شريحة المتعلمين والمثقفين ، فيندفع إلى وصف ذلك من خلال انتقاء آراء وتقييمات وتوضيحات لأبرز الباحثين الغربيين المختصين في علم الاجتماع وبالذات أنصار المدرسة التفاعلية الرمزية لأنه أحد أبنائها من أجل معالجة ذلك الزلل أو النقص أو الصراع الاجتماعي . كان الدكتور الكعبي يخاطب ويحاور القارئ العام مثل ما يخاطب المختص والمهتم بالقضايا والمعالجات السوسيولوجية الأكاديمية الرفيعة الملتزمة بأسلوب البحث العلمي الرصين ، لذلك لم ينشر كتاباته وأعماله العلمية في الصحف اليومية أو المجلات الأسبوعية، بل الدوريات الجامعية أو في كتب متخصصة ، مستخدماً المصطلحات العلمية ذات المعاني الواضحة المعتمدة على مفردات لغوية رفيعة المستوى ودقيقة المعنى ، بعيدة كل البعد عن الإسفاف والتدليس في الأفكار أو ألآراء الفجة أو الغامضة أو الرخيصة أو النقد الجارح أو التقريض المؤلم . فضلاً عن كونه باحثاً علمياً لم يتوخ الربح المالي من وراء كتاباته ، فقد عاش وكافح من أجل علم الاجتماع في العراق فقدم للعراقيين عطاء فكرياً وعلمياً خالصاً[19] .

أن الدكتور الكعبي ترك مايقارب الـ40 كتابا ودراسة غير منشورة معظمها يدور حول الحركات الثورية، والطبقات الاجتماعية، ومذاهب علم النفس الاجتماعي ،والفكر الطوبائي، والفكر الماركسي، والطوائف الاجتماعية، والجماهير، والتعصب، والدعاية، وعلم

اجتماع الإجرام، والتحليل الاجتماعي والشخصي، والحركات الطوعية .وحبذا لو تضطلع مؤسسة بيت الحكمة في العراق بطبعها ونشرها . وللدكتور الكعبي مؤلفات مخطوطة عن تجربته الشعرية وله ديوانه الخاص به .كما انه اعد معجما باللغتين العربية والانكليزية لمصطلحات ومفاهيم علم الاجتماع. ومهما يكن من أمر فالدكتور الكعبي صاحب مدرسة في علم الاجتماع وقد أسهم إسهاما فاعلا في ترسيخ أسس علم الاجتماع في الدوائر العلمية العراقية والعربية الحديثة .

مناقشة وتقويم

إن أعمال الدكتور الكعبي وخاصة تلك التي كرسها لدراسة حالات الرعب والغوغاء والرأي العام والمودة والحركات الاجتماعية مهمة اليوم وتتطلب منا الدراسة وقد كتب الدكتور الكعبي عنها بشكل دقيق. ومما يؤكد ذلك أن الأفراد يتبادلون التأثير وتقف اليوم وسائل الاتصال الجماهيري كالفيسبوك والتويتر في مقدمة انجازات العقل البشري وهي مما لم تكن معروفة في زمنه. وكما هو معروف فأن الفعل أي كان، لايمكن ان يتم في فراغ ولابد من فهم الفرد للموقف وتفسيره له وهذا –بحق- هو أساس التلاحم بين توجهين هما التفاعلية الرمزية والامبريقية التجريبية المنهجية. ولم يكن الدكتور الكعبي ملتزما بما كانت تؤمن به المدارس الاجتماعية وإنما كان ملتزما بقضايا شعبه وانحيازاته نحو الجماهير والثورة ودور هذه الجماهير في إحداث التغيير الاجتماعي social change .

لم ينظر الدكتور الكعبي إلى الجماهير كما نظر بعض علماء الاجتماع الغربيين نظرة شك، وإنما توصل إلى حقيقة ثابتة وهي أن الثورات وحركات الجماهير هي مصدر التغير في المجتمع. ويرفض الدكتور الكعبي فكرة البطل ويبالغ في فهمه للوظيفة الاجتماعية والتاريخية للجماهير ويقول مثلا : " أن التراث الاجتماعي في كل مجتمع ينطوي على رواسب ومخلفات ومتحجرات ومقدسات وشعائر وطقوس ومراسيم وطوائف دينية وعقائد ومشاعر ومااليها ،هي من خلق الجماهير في الأعم الأغلب ".

أما عن كتاباته فيمكن تصنيفها على اتجاهين هما التوليفي والتفاعل الرمزي. ونبدأ بالاتجاه التوليفي حيث يقع هنا كتابه (في علم اجتماع الثورة) وقد قال عن هذا الكتاب(لقد بذلك جهدي في هذا البحث الموجز أن تتبع الثورة من جذورها وبدايتها الاولى حتى نهايتها

مستعرضا اراء من توفروا على دراستها من فحول الكتاب واساطين الباحثين املا ان يجد المعنيون بدراسته هذا الوجه من السلوك الجمعي فيد مصدرا مركزيا جامعا لأهم الآراء في هذا الموضوع ومراجعة محيطة بأهم جوانبه ووجوهه). وضمن الاتجاه التوليفي كذلك يقع بحث (الطبقة الاجتماعية وكارل ماركس) الذي بدأ بالتأكيد أن الظاهرة الطبقية موجودة في كل المجتمعات، وضم الاتجاه نفسه يقع كتابه(نموالفكر الاجتماعي) الذي هدف منه إلى تتبع تسلسل الفكر الاجتماعي خلال القرون بصورة موجزة مقتضبة جداً بمقدار ما لهذا الفكر من أثر في نشأة علم الاجتماع.

استنتاجات الدراسة

1- ان الاساتذة علي الوردي وعبد الجليل الطاهر وحاتم الكعبي كانوا من رواد علم الاجتماع في العراق والوطن العربي ، ساهموا مع زملائهم واقرانهم من الاجتماعيين في العراق ومصر وسوريا في وضع اللبنات الاولى لبناء اقسام جامعية ومراكزاً بحثية لعلم الاجتماع في بلدانهم.

2- أن أعمال هؤلاء الرواد يربط بينها سياق مشترك فهي تكمل بعضها بعضا، وتعمق دراسات علم الاجتماع أكثر فأكثر، وان اعمال هؤلاء الرواد لم تنشأ على انقاض م سبقهم من المفكرين، وإنما جاءت استجابة لهذه الاعمال، وعبرت عن رغبة اصيلة في التطوير، والتصحيح، والاضافة، والتعمق.

3- ان هؤلاء الرواد كانوا صنيعة للبناء الاجتماعي وللسياق التاريخي الذي نشأوا من خلالها وتربوا وترعرعوا في ظلها ولذا فقد كانوا متاثرين بما كان يحيط بهم من ظروف وعوامل مشتركة ومتداخلة تارة ومستقلة ومنفصلة عن بعضها تارة اخرى.

4- أن أسلوب الوردي كا أسلوبا سلساً مشوقاً، وعنيداً في لدفاع عن آرائه، وله الفضل في نقل الاحداث السياسية والاجتماعية من تاريخ العراق الحديث الينا، كما كان له الفضل في ارساء اللبنات الاولى لعلم الاجتماع الحديث في العراق. واستعان الوردي في عرض مؤلفاته بالمنهج التاريخي والمنهج المقارن، كما حصل على مادته العلمية عن كريق الملاحظة بالمشاركة، وكبار السن وتقارير طلبته والعديد من المصار العربية والاجنبية،وان

ما كتبهالوردي عن ابن خلدون هو جهد له قيمة علمية كبيرة، وأن أغلب نتائجه لطروحاته حول ازدواجية الشخصية العراقية جاعلا من اسبابها عدة عوامل (حضارية، واجتماعية، ونفسية، ولغة، والاهتمام بالشعور على حساب اللاشعور، والصراع ما بين البداوة والحضارة، وضعف الحكومة العثمانية، وقوة السلطة الوطنية ما بعد عقد العشرينات من هذا القرن).

4- استعان الطاهر بعرض كتبه بالمنهج التاريخي والمقارن، وكذلك بالمنهج الاحصائي. وقد بذل الطاهر جهدا قيما سواء فيما قام به من ترجمات أو كتابات، وخاصة فيما كتبه عن (مسيرة المجتمع) و(اصنام المجتمع) و (التفسير الاجتماعي للجريمة) و(البدو والعشائر في البلاد العربية)، ولعل الاضافة المهمة للدكتور الطاهر هي ما كتبه عن صراع الشخصية العراقية للتخلص من قواقعها التقليدية لتتجه بولائها للمجتمع الاكبر (الامة العربية) مبديا اعجابه بتلك الشخصية ومنتقدا د. الوردي إياها بالازدواجية.

وقد تباين اسلوب د.الطاهر ما بين التجريد العالي، وخاصة فيما كتبه عن علم الاجتماع بين الفينومينولوجيا والتجريبية، وعلم اجتماع المسرح، وما بين التبسيط الشديد خاصة فيما كتبه عن الشباب والزواج ومقارنة الفتاة العراقية بالاجنبية.

5- استعان اكعبي في عرض مؤلفاته بالمنهج التاريخي والمقارن، ودراسة الحالة الفردية وقد استطاع عبر تلك الكتابات أن يركز اهتمامه على مواضيع السلوك الجمعي وبذلك يكون قد سد بعض النقص في المكتبة الاجتماعية العربية في ذلك الاختصاص الدقيق لندرة ما كتب عنه من قبل المتخصصين في الوطن العربي، فضلا عما توصل اليه من نتائج قيمة في بحثه (دراسة حالة الزعامة) التي قارن فيها بدقة نتائجه ما سبق أن توصل اليه العلماء من نتائج في السلوك الجمعي، وبالذات ضمن مجال الحركات الاجتماعية والزعامة.

توصيات الدراسة

1- أن الحركة النقدية المعاصرة لعلم الاجتماع لا بد لها من أداة بحث تعينها على إجراء تحليل لنظرياته ومفاهيمه، وتتمثل أداة البحث هذه في استقراء الفكر الاجتماعي، والتنقيب عن روافده الاساسية، وربطه بالتيارات التاريخية الكبرى.ويتحقق هذا بالمحاولات المستمرة

لمواجهة وفحص النظريات المختلفة، ودراسة أعمال المفكرين الاجتماعيين دراسة تحليلية نقدية مقارنة بذلك يتكون لدينا ادراك اوسع للعلم مرتكز على قاعدة عريضة من المعرفة، وتقع مسؤولية هذا بالطبع على علماء الاجتماع انفسهم.إذ بوسعهم تقويم علمهم من ذات المنظور الذي يميزهم عن غيرهم من المتخصصين في العلوم الاجتماعية الاخرى.

2- القيام بمشروع كبير يتمثل في اعادة تقويم الشخصيات التاريخية في علم الاجتماع في ضوء التيارات الفكرية والسياسية التي اسهمت في بلورة افكارهم، ذلك هو الطريق الذي ينبغي ان نسلكه في بحثنا عن الاصول الاجتماعية لنظريات هذا العلم.

المراجع والهوامش

---

[*] يشير الرقم الأول إلى رقم المرجع في قائمة المراجع، والرقم الثاني هو رقم الصفحة أو الصفحات بذات المرجع.

[1]- Peter Hanfer, Theories and Paradigms in Sociology, The Scientific Journal Facta university series: Philosophy and sociology Vol.1 , No.5 , 1998.

[2]جراهام كينلوتش، تمهيد في النظرية الاجتماعية: تطورها ونماذجها الكبرى، ترجمة: محمد سعيد فرح، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1990.

[3]هادي صالح العيساوي، آفاق علم الاجتماع في الوطن العربي، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، 2008.

[4]محمد حمود ابراهيم السهر، منهجية البحث الاجتماعي عند الدكتور عبد الجليل الطاهر، رسالة ماجستير غير منشورة في علم الاجتماع، كلية الآداب – جامعة بغداد، 2003.

[5]معن خليل عمر، رواد علم الاجتماع في العراق، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990.

[6]علي الوردي، محزلة العقل البشري، دار حواء للطباعة والنشر، بغداد، 2005.

[7]رائد علم الاجتماع الدكتور علي الوردي .2013 . الكاردينيا مجلة ثقافية عامة. تاريخ التصفح 2014/9/29 الساعة 11:50.
http://www.algardenia.com/asmafealtareck/3083-2013-02-10-19-26

•- من أهم مؤلفاته هي: محزلة العقل البشري، ووعاظ السلاطين، وخوارق اللاشعور أو أسرار الشخصية الناجحة، ولمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (8 أجزاء)، والأحلام بين العلم والعقيدة، ومنطق ابن خلدون، وقصة الأشراف وابن سعود، وأسطورة الأدب الرفيع، ودراسة في طبيعة المجتمع العراقي، وشخصية الفرد العراقي، بحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع الحديث، وأكثر من 150 بحثا مودعة في مكتبة قسم علم الاجتماع في كلية الاداب جامعة بغداد.

[88]محمد حمود ابراهيم السهر، منهجية البحث عند الدكتور عبد الجليل الطاهر، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 2003.

[9]هادي صالح العيساوي، مرجع سابق، ص 170.

[10]المرجع نفسه، ص 171.

[11]رائد علم الاجتماع الدكتور علي الوردي، مرجع سابق.

•- ان اهم الاثار العلمية التي انجزها هي الكتب التالية: اطروحته في الدكتوراه الجاليات العربية في امريكا سنة 1952، وكتاب المزارع التعاونية الجماعية في الاتحاد السوفيتي والصين والديمقراطيات الشعبية، المشكلات الاجتماعية في حضارة متبدلة 1953 ، والتفسير الاجتماعي للجريمة 1954، والبدو و العشائر في البلاد العربية 1955، واصنام المجتمع ، وبحث في التحيز والتعصب والنفاق الاجتماعي 1956، والعشائر والسياسة 1958، وتقرير سري لدائرة الاستخبارات البريطانية 1958، واصول فلسفة الطبقة الوسطى 1960، علم الاجتماع بين الفينومينولوجية والتجربة 1962 ، وعلم الاجتماع بالاشتراك مع الدكتور علي شلتوت 1964 ، ومسيرة المجتمع ، وبحث في نظرية التقدم الاجتماعي -1965، وعشرة اعوام في طرابلس 1968، والايديولوجية و الطوبائية 1968 . انظر في: سلمان مجيد.(2012). عالم الاجتماع الدكتور عبد الجليل الطاهر، الحوار المتمدن، المحور: الفلسفة ,علم النفس , وعلم الاجتماع، العدد(3686)، تاريخ الدخول: 2 / 4 ، الساعة: 11:00 .

[12]محمد حمود ابراهيم السهر، مرجع سابق، ص93.

[13] هادي صالح العيساوي، مرجع سابق، ص193.

[14] معن خليل عمر، مرجع سابق، ص195

[15] محمد حمود ابراهيم السهر، مرجع سابق، ص77.

[16] المرجع نفسه، ص ص 77-78.

[17] هادي صالح العيساوي، مرجع سابق، ص286.

[18] المرجع نفسه، ص 287.

• - له كتب مطبوعة ، منها : في علم اجتماع الثورة 1959 ،ونمو الفكر الاجتماعي 1964 ، وحركات المودة 1971 ، والسلوك الجمعي1973 ، وله كتب مترجمة كثيرة، منها : المدرسة الاقتصادية في علم الاجتماع لسروكن 1948 ، والمدرسة الميكانيكية في علم الاجتماع 1948 ، وله بحوث اجتماعية طريفة منشورة في مجلة (الأستاذ) التي صدرت عن كلية التربية .

[19] المرجع نفسه، ص203.